ثقافة الصورة .. ثقافة المشاهدة

سعد محمد رحيم

تحاصرنا الصور من كل اتجاه، كما الإعصار، كما الفيضان العارم.. آلاف الصور التي تهب علينا في كل يوم وتفيض وتُغرق أذهاننا بكثافة وسرعة.. صور تعقبها صور، ومن ثم صور، حتى أننا لا نملك الوقت الكافي والإمكانية على استيعابها كلها وتمثلها.

كان الفين توفلر في كتابه (صدمة المستقبل) قد تحدث عن عدم قدرة الذهن البشري فيزيولوجياً على ملاحقة سرعة جريان الأحداث والأشياء، وكذا التطورات الحاصلة في مناحي الحياة كافة؛ تلك السرعة التي تربك الأفكار والتصورات، وتسبب نوعاً من الصدمة النفسية للإنسان المعاصر. وإذا كان توفلر قد تحدث عن هذا في سبعينيات القرن الماضي، قبل طغيان الوسائل الحديثة في مجالات الإعلام والاتصال من فضائيات، بآلاف قنواتها. وشبكة الإنترنت، بمواقعها التي لا تعد ولا تحصى، ناهيك عن الهواتف النقالة التي راحت، هي الأخرى، تفيض علينا بالرسائل والصور المتدفقة على مدار اللحظات. نقول إذا كان هذا رأي توفلر قبل أكثر من ثلاثين سنة، فماذا تراه يقول الآن؟.

تهيمن صناعة الصور اليوم على الحقل الثقافي الذي بات يكتسب مع مستجدات تلك الصناعة سياقاً وفحوى مغايرين.ولا يفيدنا بشيء، مثلما يفعل بعضنا، صب اللعنات على هذه الصناعة وما تفرز من معطيات ثقافة جديدة، لأننا نتعرض لعواصفها ونلبث عاجزين أمام ما تُحدث من تحولات في الرؤى والقيم والعادات. فصناعة الصورة هي الوجه الآخر لثقافة العولمة إذ يجري، في غفلة منا، تعولم كل شيء بشكل يهدد الهويات الثقافية الخاصة بالشعوب (ونحن منها) التي رسختها عبر عشرات القرون. وهذه نتيجة طبيعية طالما أننا لا نشارك بجدية في إنتاج هذا النمط المعولم. ونكتفي باستهلاك منتجاته. حتى حين نعكف على الإنتاج فإننا لا نفعل سوى تقليد الغرب بشكل شاحب، من دون أن نطبع هذا الإنتاج بطابعنا إلا في القليل النادر. كما أن الصورة على عكس الكلمة المكتوبة والمنطوقة عابرة للحدود القومية واللغات والثقافات، وإن صناعتها بحاجة إلى مستويات راقية من التقنيات المتطورة والاستراتيجيات التي لا نملكها، ولا نجهد أنفسنا في سبيل إبداعها.

يُقال أن ثقافة الصورة لا تحتاج إلى تعلم الأبجدية، وإننا مع الصورة قد انتقلنا، على حد تعبير عبد الله الغذامي "من ذهنية المنطق ونحوية اللغة إلى ثقافة الصورة ونحو الصورة". فهل يحق لنا الادعاء بأن الأمية بفضل ثورة صناعة الصور باتت من مقولات الماضي ليس إلا، أم أن من حقنا الحديث عن اصطلاح جديد هو (أمية المشاهدة).

تتيح ثقافة الصورة الفرصة لمليارات البشر بالتعرف على ما يجري في الجانب الآخر من أمكنتهم، ناهيك عما يجري في أمكنتهم ذاتها. غير أنه ليس من الصحيح أن ثقافة الصورة تقضي على الأمية الثقافية طالما أنها لا تفترض في المتلقي معرفة بالقراءة والكتابة، أو خلفية ثقافية من أي نوع. إن صناعة الصورة بعدّها إنتاجاً ثقافياً تتطلب ثقافة مشاهدة، وإلا فإن المتلقي السلبي لن يتعامل مع ما يشاهد إلا من خلال أميته الثقافية الموروثة. فثقافة الصورة لا تلغي ثقافة الكلمة وإنما تتعايش معها، تسند إحداهما الأخرى وتعزز دورها. وإذا كانت ثقافة الكلمة المكتوبة خاصة بالنخب المتعلمة فإن متلقي ثقافة الصورة هم كل البشر الذين يحظون بنعمة البصر، بيد أن القول بأن هذه الثقافة الأخيرة تزيل الأمية الثقافية يبقى بحاجة إلى مراجعة وإعادة تقويم. فالصورة نفسها هي علامة، مبتكرة بسياق معين وأفق دلالي وموجهات إيديولوجية وفي ضوء مصالح وأهداف. وصناعتها تخضع في أثناء الإنتاج لمنظومة قيم ومعايير صنّاعها، وهم، ها هنا، ينتمون للغرب الرأسمالي. والوازع الرأسمالي أساس في تلك الصناعة حيث الغاية هي الاستحواذ على عقول المتلقين وتكييفها بما يتلاءم مع متطلبات السوق ومنطق الاستهلاك، والسعي إلى الربح.. هذه العلامة معروضة من أجل أن تقرأ.

والآن لنسأل؛ هل بات الجيل الحالي مع ثورة صناعة الصورة أكثر وعياً وأعمق ثقافة من الأجيال السابقة، أم أن هذه الصناعة على حد تعبير ريجيس دوبريه "بدل أن تشحذ الرؤية فإنها تسبب العمى"؟. وإذا كنا نتفق مع دوبريه يكون من حقنا أن نضيف سؤالاً آخر؛ لماذا؟.. لماذا لا يفضي تدفق المعلومات بوساطة الصور إلى توسيع الآفاق الذهنية للمتلقين؟.

إن قراءة العلامة ترتبط، لا شك، بخلفية المشاهد العلمية والثقافية. وبذا فإن قراءة الصورة عند الأمي (بالمعنى التقليدي) تختلف عن قراءتها عند المتعلم والمثقف. وإذا كانت الثقافة، في أحد وجوهها، هي الانشغال بقضية المعنى فإن المثقف هو من يحاول الوصول إلى المعنى الكامن في ما وراء الصورة، وليس الاكتفاء بالمتعة البصرية التي تحققها تقنيات التصوير ومنتجته. والصورة ليست حيادية دائماً، فهي أيضاً لها تحيزها الخاص، غير أن لها قدرتها على إخفاء ذلك التحيز..إن الصورة المعروضة هي في نهاية المطاف خيار منتجها وعارضها، فهي واحدة من بين عشرات أو مئات الصور الأخرى المرتبطة بالشيء نفسه أو الحدث نفسه (المصور) والتي تم استبعادها. وعملية الاختيار تفضي إلى إرسال رسالة بعينها، أو بث معنى محدد. وقد تكون هذه الرسالة محاولة لتشويه الحقيقة أو مواربتها. فزاوية اللقطة وحدودها، وعملية المونتاج التي تتعرض لها والسياق الذي تبث فيه والتعليق (الشفهي أو المكتوب) الذي يصاحبها ووقت البث ومناسبته، كلها عوامل تتدخل في ترك أثر معين (مخطط له) ومعنى بعينه في ذهن المتلقي. كما أن ثقافة المتلقين تحدد أيضاً ـ أي السياق المعرفي والقيمي الذي يعيشون فيه ـ خياراتهم في استقبال الصور. ونعرف أن كثراً من هؤلاء لا يتابعون إلا القنوات التي تتساوق في برامجها وخطها الإيديولوجي مع أهوائهم وأمزجتهم ومسبقاتهم الفكرية ومعتقداتهم. وبذلك فإنهم يعززون ما درجوا عليه من أفكار وقيم وعادات نابذين القنوات والبرامج التي تختلف في اتجاهها مع اتجاهاتهم.

واليوم هناك كثر من المفكرين الذين يطرحون رأياً مؤداه أن ثقافة الصورة لا تعكس الواقع في حقيقته وإنما تخلق واقعاً متخيلاً ومتوهما، لأنها ببساطة تصدر عن إيديولوجية مؤسسات تبغي التحكم والسيطرة على العقول لغايات سياسية واقتصادية. وإذا كانت ثقافة الاستهلاك من خلال صناعة الصور تنمّط العقل وتحدده وتسطّحه لترسخ قيماً عابرة وتخاطب الغرائز، وتطيح بالذاكرة وتشيع النسيان. فهذا يتطلب منا التعامل مع هذه الثقافة وهذه الصناعة بوعي نقدي من جهة، والعمل على المشاركة في إبداعها من جهة ثانية، وهذه المرة بأفق أخلاقي وإنساني، وتأصيل القيم الثقافية الحضارية القائمة على مبادئ الحق والحقيقة والخير والجمال. وقد يبدو هذا كلاماً عاماً، وحلماً طوباوياً، وسيبقى كذلك ما لم تغد المشاركة الفعالة في صناعة الصورة والقضاء على أمية المشاهدة داخلة في صلب استراتيجية مؤسسات الدولة والمجتمع التربوية والعلمية والبحثية والإعلامية، ومن أولوياتها التنموية.

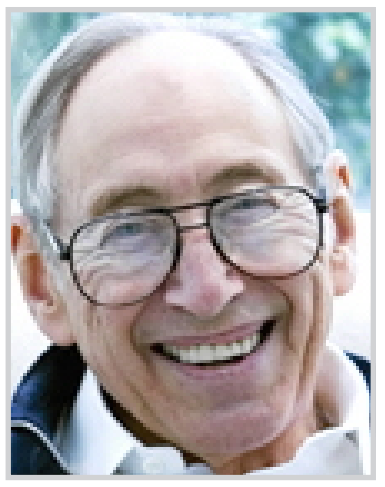

حوارية التفاح

جمال ناجي

بين تفاحة آدم وتفاح هذه الايام زمن غير معروف ، وإن كان بعض العلماء قد أرجعوا ابتداء شوط الإنسان مع الحياة الى ملايين الأعوام ، أو على وجه التحديد ، أربعة ملايين عام حسب المفكر والعالم الامريكي " كارل ساغان " في كتابه الشهير عن الكون .

ليس مهماً الآن متى نشأت الخليقة ، إنما المهم هو : ماذا فعل التفاح بنا وبأجدادنا الذين لم يتمكنوا من مقاومته ، ولم يفكروا ولو مرة واحدة بالتمرد عليه .

أحيانا أشعر بأن التفاحة كائن استعراضي احترف منذ زمن بعيد ، اصدار النداءات الصامتة الناعمة التي توقع الناس في حبائلها ، من دون أن يند عنهم أي اعتراض أو احتجاج . الأنكى ، أننا نصدق الحكاية العتيقة ونحب التفاح ونضبط خطواتنا على إيقاعات الديجيتال في آن واحد! حتى أن بعض شركات الهواتف والكمبيوتر والألبومات الغنائية ، تلجأ الى وضع صورة التفاحة المقضومة أو السليمة على شعارها المعتمد ، بهدف جذب المتسوقين والمعجبين !

ترى ، هل أدرك القائمون على تلك الشركات ، ما لهذه الفاكهة الخطيرة من فتنة وقدرة على تسويق الغواية ؟

لنعترف : للتفاح سلطة غامضة وصامتة برغم أننا تواطأنا على تجاهلها ، بسبب اعتدادنا وزهونا بسلالتنا البشرية من دون سواها ، فالتفاحة استدرجت آدم كي يلتهمها، فكانت الطعم الذي أوقعه واوقعنا معه في فخ شقائنا الابدي : لقد تمكنت منه ، وتسببت في إخراجه وسلالته من الجنة الى يوم الدين .

لو صبر آدم وتماسك لكانت الحياة افضل واجمل ، ولو لم يوجد التفاح لما اضطر بنو الإنسان الى اللهاث في شعاب الحياة ، لكن مشيئة الله .

الروائي " فرانزكافكا " أصيب بالخيبة حين تأمل المسألة ، فصاح بذهول :هنالك خطيئة رئيسية وحيدة اسمها نفاد الصبر، فبسببه طردنا من الجنة، وبسببه لا نستطيع العودة اليها ، والتفاحة هي مبعث نفاد الصبر .

خلال قراءاتي بدايات ظهور جنسنا البشري على هذه الارض، تساءلت باستهجان عن السبب الذي منع الانسان الاول أو الثاني ، أو ذريته من الأقوام البدائية التي سبقتنا الى الوجود، من التنبه الى خطورة التفاح ، والاقتصاص منه ، و محو كل أثاره عن وجه البسيطة، واجتثاث جذوره من عمق التراب تحسبا من عودته الى الحياة مستقبلا ، اذ ان المسألة تتعلق بالثأر من كائن نغص عليهم نعمة الوجود!

لماذا لم يفعلوا ذلك؟ لماذا لم يقوموا بواجبهم السلالي هذا ؟

اتراهم ارادوا اختبار قدرة أحفادهم على التماسك والصمود؟ ربما، لكن ، طالما اننا من أولئك الأحفاد

لنلاحظ هذا الكيد والتحرش الأنثوي السافر : لم تجد التفاحة وقتاً للسقوط عن الشجرة إلا حين قرفص نيوتن تحت ظلالها ! مؤخراً اتيحت لي فرصة التشفي بالتفاح ، فقد تنبهت الى وجود تشوهات في مظهره ، فالجزء السفلي من تفاح هذه الايام لا يخلو من التدرنات والبثور، كما ان معظمه معوج، كأنما تحتاج كل حبة منه الى عمليات تجليس، وجراحات تجميلية تضمن اعادتها الى سابق سحرها وغوايتها

—مع الاعتراف بضمور عضلاتنا وتفسخ اراداتنا- فان من حقنا ان نقاوم التفاح ونقاطعه، خصوصا انه مازال ينظر الينا باستعلاء ، فثماره لاتكبر الا اذا نمت في أماكن عالية ، وبما يحقق لها فرص النظر الينا من عل! ثم ان اسعاره ايضا مرتفعة ودائمة الازدراء لجيوبنا ومشاعرنا، وفوق هذا كله ، فقد تمكن من تحويل الأطباء إلى مروجين مجانيين لا يكفون عن تقديم نصيحتهم التقليدية لنا برتابة اكاديمية مشكوك في صحتها: ان تناول تفاحة واحدة كل يوم، يكفل لنا عقد سلام دائم وشامل مع الامراض طيلة حياتنا!

ومما يدعو الى الحنق ، ان التفاحة لم تكتف في حربها الناعمة معنا بتسخير سحرها للايقاع بنا، انما استطاعت الإيقاع بواحد من أهم علماء البشرية وعباقرتها ، إسحق نيوتن ، الذي أرغمته على اكتشاف قانون الجاذبية ، حين سقطت عن شجرتها امام عينيه!

لنلاحظ هذا الكيد والتحرش الأنثوي السافر : لم تجد التفاحة وقتاً للسقوط عن الشجرة إلا حين قرفص نيوتن تحت ظلالها !

مؤخراً اتيحت لي فرصة التشفي بالتفاح، فقد تنبهت الى وجود تشوهات في مظهره، فالجزء السفلي من تفاح هذه الايام لا يخلو من التدرنات والبثور، كما ان معظمه معوج، كأنما تحتاج كل حبة منه الى عمليات تجليس، وجراحات تجميلية تضمن اعادتها الى سابق سحرها وغوايتها:

هل يشيخ التفاح؟

لا اتحدث هنا عن التفاح الرخيص المصاب بذات الرئة، ولا عن تفاحة نيوتن ، انما عن كل انواعه المتداولة، بما في ذلك الامريكي اللماع ، المستورد خصيصاً للاستهلاك في بلدان عالمنا الثالث.

قبل ايام رأيت آدم الصغير يحمل تفاحة كبيرة ، وحين سقطت منه، تدحرجت على الاسفلت بدلال اعادني الى بداية الخلق ، واذ ركض ليلتقطها، اقبلت نحوه سيارة مسرعة، فجمد في مكانه، ربما اصيب بشلل حركي مؤقت حين سمع صخب الفرامل والعجلات التي كادت تسحقه، وربما سمع نداءات التفاحة التي وضعته امام خياري تركها لمصيرها المأساوي، او التضحية بحياته من اجلها.

صحيح ان السيارة لم تجرؤ على سحقها ، و لم تدهم الصبي ، لكنني أكاد أجزم بأنه فكر بالتقاطها على الرغم من معرفته بفظاعة النتائج : أليس الطفل واحداً من بني آدم؟

لكن كيف غاب عنه ان التفاح لم يعد يستحق التضحية بعد ان هرم وشاخ؟

ناجي.. أيها الحميم.. لماذا هجرت البتاويين؟

عبد الخالق كيطان

إنه الموت مرة أخرى.. وأخرى.. وهذه المرة مع الفنان الرقيق ناجي كاشي..

قال الشهود إنه وجد ميتاً في منزله في مدينة السماوة الجنوبية.. صرعه قلبه.

هكذا يا ناجي.. قلبك هو الذي صرعك.. فيا للمحنة.. ولم تكن في سيرتك التي أعرفها، ويعرفها المئات من محبيك وأصدقائك، غير قلب نبيل يجتاز المحطات القاسية بكثير من الصبر والقدرة على تحمل الآلام.. كنا شركاء يا ناجي في ذلك كله، وها أنا لا أملك الآن غير التشرف بتلك الشراكة الشريفة..

في مقهى في البتاويين.. أو في أروقة أكاديمية الفنون الجميلة.. في صالة مسرح الرشيد الشهيد، أو في شقة شارع فلسطين... في شوارع الكرادة.. أو في صخب الحانات.. أو منتدى المسرح ..هنا .. أو هناك.. كنت تعاند أحزانك.. سوء الحظ.. وضيق اليد.. ولكنك لم تكن أبداً غير قلب يحمل من جرار الحب ما أعجز عن وصفه.

ويا ناجي كاشي.. يا شريك الأحلام والآلام.. لم أكن قط أتصور أنني سأكتب عنك مثل هذه الكتابة.. تتذكر (من أجل أنكيدو)، ذلك العرض الذي أبهرني، وأبهر غيري فصمتوا ولم أصمت، كنت فرحاً بصوتي العالي في القاعة الملتهبة.. حدث ذلك قبل نحو عشرين عاماً.. ياه... كم كبرنا.. وصبرنا.. وتعبت قلوبنا فما عادت تحتمل!

ويا ناجي كاشي.. أيها الحبيب الذي يحتفظ بالكلام لساعة خاصة.. تعلمت منك كيف أنصت.. وتعلمت منك أشياء أخرى كثيرة.. ولكنني لم أعد نفسي جيداً لساعة مثل هذه.. ساعة شعارها الندب وعنوانها الدموع.. وماذا أفعل وأنا بعيد عنك، عن جنازتك.. مجلس عزائك .. وهذه المسافات الشاسعة جداً ماذا أفعل غير نحيب صامت ملتاع.. واستذكارات تسيل من ورائها الدماء؟؟

ويا ناجي كاشي... أبحث الآن في الوجوه عن فيصل جابر عوض.. علني أنزف في أحضانه أوجاعي..

ويا ناجي كاشي.. أنني أرى الآن حشداً من الكهان والقديسين والمعممين وهم يحملون الشموع جميعاً ويدورون في حلقة ذكر منتقاة.. هنا جسد الفنان.. صانع الأحلام والأوهام.. والقيم على بركات الجمال الكونية.. هنا جسد صرعه قلبه الرهيف.. جوق اللاطمات يحيط بالحشد، أيديهن على الخدود.. الرجال الذين شدهم المشهد الرهيب أكتفوا بالمراقبة.. ودموعهم على الخدود.. الفنان الطيب.. عاشق الغرابة والعزلة يتمدد الآن بوقار شبيه بوقار الأباطرة.. يخرج من جسده رجل آخر.. رجل في أواسط العمر، يخترق الحشود من دون اكتراث، ويذهب إلى مقهى في البتاويين ليحتسي الشاي ويقلب في أوراق مختلفة..

ناجي كاشي.. يا صاحبي..

لقد أدميت قلبي.

ناجي كاشي

كتابٌ حواريّ جديدٌ للتونسيّ وليد الزريبي:

"شاكر لعيبي: عزلة الحمل"

ضمن سلسلة الكتب التي يصدرها الشاعر والصحفيّ التونسيّ وليد الزريبي صدر كتاب تحت عنوان "شاكر لعيبي: عزلة الحمل". والكتابُ حوارٌ موسعٌ أجراه الزريبي مع الشاعر العراقيّ يتناول جملة من القضايا التي تهم الشعرية العربية الجديدة ودور لعيبي فيها اليوم، ومشكلات الفن التشكيلي والتلقي والترجمة وقضايا ساخنة أخرى مثل موقف المثقفين العراقيين من احتلال العراق، من بين أشياء أخرى تتعلق بالفكر والجماليات.

يستلهم عنوان الكتاب مجموعة الشاعر العراقي الأخيرة "عزلة الحمل في برجه" الصادرة عن دار النهضة العربية في بيروت أواخر عام ٢٠٠٧,

الكتاب من نشر الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم ٢٠٠٨, التقط صوره الروائي كمال العيادي وقام بتصميمه وإخراجه الشاعر المنصف المزغني، وهو من ٧٢ صفحة من القطع الصغير.

السلسلة التي يدأب الزريبي على إصدارها جديدة في فكرتها، لأنها تتضمن إجراء حوار مطوّل نسبياً مع مثقف من المثقفين العرب أو التونسيين مزوداً بلقطات منتخبة من الصور الفوتوغرافية لهم ولأعمالهم، إلى جانب مختارات من النصوص الدالة على مسيرتهم الإبداعية. يستهدف حجم الكتاب وحيوية إخراجه أن يقدم صورة بانورامية عن مبدع عربي بشكل سهل التناول من طرف غالبية القراء المتخصصين وغير المتخصصين. ومن بين المبدعين الذين صدرت لهم حتى الآن كتب في السلسلة نذكر سعدي يوسف وقاسم حداد وميسون صقر وصلاح الدين بوجاه وأحمد فؤاد نجم وعدنان الصائغ وسليم دولة والمنصف المزغني وغيرهم.

الرسم جوار الحروف .. إضافة لتاريخ الفن العراقي

متابعة ميناس السهيل

بحضور عدد من المهتمين بقضايا الفن التشكيلي العراقي افتتح على قاعة مدارات المعرض المشترك للفنانين د جواد الزيدي وحسين جرمط وضم المعرض عشرين لوحة انحسرت في تناول موضوع الرسم على الحروف وابلاء اهمية قصوى للتصميم النهائي بوصفه شكلاً متوازناً ومحسوباً بدقة تصميمية واكتسب السطح التصويري ملمساً آخر وساعد على استعمال التقنيات اللونية بفضل استخدام كلا الفنانين مادتي الزيت والاكرلك مع مواد اخرى مثل water brove ومن الافت للانتباه بأن هذين الفنانين عملا بمنطق شكلاني متقا رب يوحي بأن ثمة صلات ذوقية وفنية تلاقيهما على سطح اللوحة ولايكاد المتلقي ان لا يفرق بين الفنانين .

التقينا الفنان جواد الزيدي الذي حدثنا عن هذا المعرض المشترك قائلاً : برغم انه المعرض المشترك الاول مع الفنان حسين جرمط ووجود جذر مشترك في ما بيننا الا انني اجده معرضاً شخصياً كونه تجربة جديدة تمثلت في الرسم جوار الحروف وليس داخلها بعيداً عن المرجعيات الروحيات التي عملت سابقاً او الفنانين الذين وضعو الحرف العربي بصيغة الاناقة الخطية الموجودة داخل اللوحة التشكيلية وان اهم ما نزعنا له في هذا المعرض هو توضيف الحرف العربي داخل اللوحة المرسومة وكثير من الاعمال وضعت سابقاً الا ان الرؤية مختلفة من زاوية اعلان جديد الى ولوج الحرف العربي .